التفسير بالقراءات: منهجية فهم النص في ضوء التنوع القرائي

Tafsīr through Qirāʾāt: A Methodological Approach to Understanding the Text in Light of the Diversity of Readings

م.د. محمود حسن علي

Lect.Dr.Mahmood Hasan Ali

جامعة سامراء / كلية التربية

University of Samarra / College of Education

E-mail: Mahmood.has.ali@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: اقراء , منهجية , تضاد , قرءات , تفسير

Keywords: Readings, Methodology, Contradiction, Qirāʾāt, Tafsīr

الملخص

يتناول هذا البحث منهج التفسير بالقراءات بوصفه أداة علمية أصيلة في فهم النص القرآني في ضوء التنوع القرائي. ويكشف عن دور القراءات في توسيع الدلالة التفسيرية دون الإخلال بوحدة النص أو مقاصده. كما يعرض مناهج المفسرين في توظيف القراءات بين الجمع والترجيح. ويخلص إلى أن التعدد القرائي اختلاف تنوّع مقصود يُثري المعنى ويضبطه.

Abstract

This study examines Qur'anic interpretation through variant readings as an authentic methodological approach to understanding the Qur'anic text. It highlights the role of readings in expanding exegetical meaning while preserving textual unity and intent. The research analyzes exegetes' approaches between combining and preferring readings. It concludes that Qur'anic variation represents purposeful diversity that enriches meaning in a controlled manner.

المقدمة

يحظى القرآن الكريم بخصوصية نصّية فريدة، تتجلّى في كونه نصًا واحدًا في مصدره، متعدّدًا في وجوه أدائه، وهو ما اصطلح عليه العلماء بـ **القراءات القرآنية**. وقد شكّل هذا التعدّد القرائي مجالًا واسعًا للاجتهاد العلمي، ولا سيما في ميدان التفسير، إذ لم يُنظر إلى القراءات بوصفها اختلافًا شكليًا أو صوتيًا فحسب، بل عُدّت أداةً أصيلة من أدوات فهم النص القرآني، ورافدًا مهمًا من روافد البيان الدلالي.

ومن هنا برز **التفسير بالقراءات** بوصفه منهجًا علميًا راسخًا، يقوم على استثمار التنوع القرائي في الكشف عن أبعاد المعنى، وتوجيه الدلالة، وتوسيع أفق الفهم، دون الإخلال بوحدة النص أو مقاصده الكلية. وقد تنبّه المفسرون الأوائل إلى هذه الحقيقة، فجعلوا القراءات جزءًا لا ينفصل عن العملية التفسيرية، واعتبروا اختلافها اختلاف تنوّع يُغني المعنى ولا يضادّه.

غير أن هذا المنهج لم يَسلم من الإشكال؛ إذ وقع بعض المتأخرين بين طرفين متقابلين:

* طرفٍ بالغ في توظيف القراءات حتى حمّلها ما لا تحتمل من المعاني.

* وطرفٍ آخر همّش دور القراءات، وقصر التفسير على وجه واحد، فأغلق باب الاتساع الدلالي الذي قصده النص.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الموسوم بـ **«التفسير بالقراءات: منهجية فهم النص في ضوء التنوع القرائي»**، إذ يسعى إلى بيان الأسس المنهجية للتفسير بالقراءات، والكشف عن التطبيقات التفسيرية لهذا المنهج عند كبار المفسرين، مع إبراز الضوابط العلمية التي تحكم هذا الاتساع الدلالي، وتحفظ التفسير من الانفلات أو التعارض.

وقد اعتمد البحث على المنهج **التحليلي والاستقرائي**، من خلال تتبع أقوال المفسرين، وتحليل نماذج تفسيرية مختارة، مع الإفادة من المناهج اللغوية والأصولية، بما يحقق فهمًا متوازنًا لدور القراءات في التفسير.

المبحث الأول: الأسس المنهجية للتفسير بالقراءات

المطلب الأول: مفهوم التفسير بالقراءات وأصوله العلمية

أولًا: مفهوم التفسير بالقراءات

يُعدّ التفسير بالقراءات أحد المسالك العلمية الأصيلة في فهم النص القرآني، إذ يقوم على اعتبار **القراءات القرآنية الثابتة** جزءًا من البنية الدلالية للنص، وعنصرًا مفسّرًا لمعانيه، لا مجرد اختلاف أدائي أو صوتي. فالنص القرآني، في صورته المتعددة قرائيًا، يحمل طاقة دلالية تتكشف من خلال تنوع وجوه الأداء التي نُقل بها عن النبي ﷺ نقلًا متواترًا.

وقد عرّف العلماء التفسير بالقراءات تعريفات متقاربة في جوهرها؛ إذ يقرر الطبري أن اختلاف القراءات «كلّها حق وصواب، ولكل قراءة وجه من المعنى» (الطبري، ٢٠٠١، ج١، ص ٥١)، وهو تقرير مبكر لفكرة أن القراءة ليست مجرد رواية صوتية، بل **حامل دلالي** يُسهم في توجيه المعنى.

ويُفهم التفسير بالقراءات – اصطلاحًا – على أنه:

توظيف القراءات القرآنية الثابتة في بيان المعنى التفسيري للنص، إما بتوسيع دلالته، أو بتقييد محتمله، أو بجمع وجوه المعنى دون تعارض.

ويؤكد ابن عطية هذا المعنى حين يقرر أن «القراءات إذا اختلفت، فكلها منزلة، ويُحمل المعنى على اجتماعها متى أمكن» (ابن عطية، ٢٠٠٢، ج١، ص ٣٨)، وهو ما يدل على أن القراءة تُعامل بوصفها **نصًا مفسّرًا داخل النص**.

ثانيًا: التفسير بالقراءات والتفسير بالرواية – تمييز منهجي

يُفرّق علماء التفسير بين **التفسير بالقراءات** و**التفسير بالرواية**، وإن كان كلاهما يعتمد النقل. فالتفسير بالرواية يقوم أساسًا على الآثار الواردة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين في بيان معنى الآية، أما التفسير بالقراءات فيعتمد **ذات النص القرآني** في تنوعه القرائي بوصفه مصدرًا داخليًا للمعنى.

وقد نبه الزركشي إلى هذا الفرق حين جعل القراءات من «وجوه البيان في نفس القرآن»، بينما جعل الرواية بيانًا خارجيًا مضافًا للنص (الزركشي، ١٩٩٨، ج١، ص ٣٢١). ويؤكد السيوطي هذا المعنى بقوله: «اختلاف القراءات بمنزلة اختلاف الآيات، إذ كل قراءة آية مستقلة في المعنى» (السيوطي، ٢٠٠٨، ج١، ص ٤٩).

وعليه، فإن التفسير بالقراءات لا يُعد تفسيرًا بالرأي ولا بالرواية المحضة، بل هو **تفسير بالنص**، لأن القراءة نفسها قرآن متلوّ، نُقل بالتواتر، وثبتت قرآنيته.

ثالثًا: حجية القراءات في الاستدلال التفسيري

١. حجية القراءات المتواترة

اتفق العلماء على أن القراءات المتواترة حجة في التفسير، بل هي من أقوى أدوات البيان؛ لأنها تمثل نصًا قرآنيًا قطعي الثبوت. وقد قرر ابن الجزري أن «كل قراءة صحّ سندها ووافقت العربية ورسم المصحف فهي قرآن» (ابن الجزري، ١٩٩٩، ج١، ص ٩)، وهذا التقرير يضع القراءة المتواترة في منزلة النص التفسيري الملزم.

ومن ثمّ، فإن اختلاف القراءات المتواترة لا يجوز رده ولا ترجيح إحداها لإبطال الأخرى في المعنى، بل يُصار إلى **الجمع الدلالي** متى أمكن، كما فعل الطبري في كثير من

المواضـع، حيـث يقـول: «وأولـى الأقـوال بالصـواب أن يُقـال: إن الله عنـى بهـذه الآيـة المعنيـين جميعًا» (الطبري، ٢٠٠١، ج٥، ص ١٨٢).

٢. القراءات الشاذة وحدود الاحتجاج بها

أما القراءات الشاذة، فقد اختلف العلماء في الاحتجاج بها في التفسير. فذهب جمهور الأصوليين إلى أنها ليست قرآنًا، لكنها **تُستأنس بها في بيان المعنى** لا في إثبات حكم شرعي. ويقرر أبو حيان أن القراءة الشاذة «تجري مجرى خبر الآحاد في التفسير لا في التلاوة» (أبو حيان، ٢٠١٠، ج١، ص ٦٢).

وعليه، فإن موقع القراءة الشاذة في التفسير موقعٌ مساعد، يُستخدم لتوضيح المعنى اللغوي أو ترجيح وجه دلالي، دون أن تُعارض قراءة متواترة أو تُبنى عليها عقيدة أو حكم.

رابعًا: القراءة بوصفها نصًا مفسّرًا

من الأصول المنهجية المهمة في التفسير بالقراءات اعتبارُ القراءة **نصًا مفسّرًا للنص**، لا مجرد وجه لغوي محتمل. فالقراءة حين تختلف في البنية الصرفية أو التركيب النحوي، فإنها تُنتج معنىً إضافيًا مقصودًا، لا طارئًا.

ومن أمثلة ذلك اختلاف القراءة في قوله تعالى:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، حيث قرر الرازي أن الجمع بين القراءتين يثبت كمال السلطان وكمال التملك معًا، وهو معنى لا تؤديه قراءة واحدة منفردة (الرازي، ٢٠٠٤، ج١، ص ١٤٥).

وهذا المثال يبرز بوضوح أن القراءة ليست بديلًا عن الأخرى، بل **مكمّلة لها** في بناء المعنى التفسيري.

خامسًا: حدود الاحتجاج بالقراءات في بيان المعنى

على الرغم من القيمة التفسيرية الكبرى للقراءات، فإن العلماء وضعوا ضوابط صارمة للاحتجاج بها، منعًا للانفلات التفسيري، ومن أهم هذه الضوابط:

١. أن تكون القراءة ثابتة صحيحة السند.

٢. ألّا تؤدي إلى معنى يُخالف السياق القرآني العام.

٣. ألّا تُستعمل لإحداث تعارض عقدي أو تشريعي.

٤. أن يُصار إلى الجمع بين المعاني ما أمكن قبل الترجيح.

وقد حذّر الشاطبي من تحميل القراءات ما لا تحتمل من المعاني، مؤكدًا أن «القرآن لا يُفسّر إلا بما يشهد له كليّه وسياقه» (الشاطبي، ٢٠٠٤، ج٣، ص ٢٩٢).

الخلاصة

يتضح مما سبق أن التفسير بالقراءات ليس مسلكًا ثانويًا في فهم النص القرآني، بل هو منهج أصيل، يقوم على اعتبار التنوع القرائي جزءًا من مقصود الخطاب الإلهي، وأن القراءة – متى ثبتت – تُسهم في بناء المعنى التفسيري ضمن ضوابط علمية دقيقة، تحفظ وحدة النص وتمنع تضاد الدلالة.

المطلب الثاني: التنوّع القرائي وأثره في توجيه المعنى التفسيري

أولًا: مفهوم التنوّع القرائي وطبيعته العلمية

يقصد بالتنوّع القرائي ما ثبت من اختلاف وجوه الأداء في ألفاظ القرآن الكريم، مع اتحاد المصدر وقطعية النسبة إلى الوحي، وهو اختلافٌ لا يخرج عن كونه **اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد**. وقد قرر هذا الأصل عدد من أئمة القراءات والتفسير، إذ يقول ابن الجزري: «اختلاف القراءات إنما هو اختلاف تنوع، يُصدّق بعضه بعضًا، ولا يُكذّب بعضه بعضًا» (ابن الجزري، ١٩٩٩، ج١، ص ٣٢).

وينبني على هذا التقرير أن التنوّع القرائي ليس عامل تشويش في الفهم، بل هو **آلية إغناء دلالي** مقصودة، تسمح للنص القرآني بأن يحمل أكثر من وجه صحيح في المعنى، ضمن سياق واحد ومقصد جامع. وقد تنبّه المفسرون مبكرًا إلى هذه الحقيقة، فتعاملوا مع القراءات بوصفها مستويات دلالية متراكبة، لا متعارضة.

ثانيًا: صور التنوّع القرائي المؤثرة في المعنى التفسيري

١. التنوّع الصوتي وأثره الدلالي

قد يختلف الأداء الصوتي بين القراءات مع ثبات البنية الصرفية، إلا أن هذا الاختلاف قد يفضي إلى فروق لطيفة في الدلالة، خصوصًا في باب الإظهار والإدغام أو المدّ والقصر. وقد أشار الزمخشري إلى أن بعض أوجه الأداء «تزيد المعنى قوة أو مبالغة دون أن تُنشئ معنى جديدًا» (الزمخشري، ٢٠٠٩، ج١، ص ٥٤).

وهذا النوع من التنوّع يؤكد أن الأداء الصوتي في القرآن ليس محايدًا دلاليًا، بل هو جزء من البنية البيانية للنص.

٢. التنوّع الصرفي وتوسيع دائرة المعنى

يُعدّ الاختلاف الصرفي من أكثر أنواع التنوّع القرائي أثرًا في التفسير؛ لأنه يمسّ بنية الكلمة ووظيفتها. ومن أمثلته اختلاف القراء في قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾، حيث بيّن الطبري أن القراءة المخففة تدل على مطلق الإنجاء، بينما المشددة تفيد التكثير والمبالغة في تحقق النجاة (الطبري، ٢٠٠١،

ج١٧، ص ٦٧), وقد استثمر المفسرون هذا الاختلاف في الجمع بين المعنيين، فجعلوا النجاة واقعة ومتحققة، ومتكررة بحسب الأحوال، وهو اتساع دلالي لا تُعطيه قراءة واحدة منفردة.

٣. التنوّع النحوي وتوجيه الإسناد

يبرز أثر التنوّع القرائي بوضوح في اختلاف الإعراب، إذ قد يؤدي اختلاف الحركة إلى اختلاف جهة الإسناد أو زاوية النظر في المعنى. ومن أشهر الأمثلة قوله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ و﴿وَكَفَى اللَّهُ شَهِيدًا﴾، حيث يرى أبو حيان أن القراءة الأولى تفيد الاكتفاء بالله من حيث كونه شاهدًا، بينما الثانية تؤكد قيام الله بالفعل ذاته (أبو حيان، ٢٠١٠، ج٣، ص ٢١١).

وهذا الاختلاف لا يوقع تعارضًا، بل يُنتج **تعددًا في زاوية المعنى**، يجمع بين وصف الفعل وفاعله في آن واحد.

ثالثًا: الجمع بين المعاني الناتجة عن التنوّع القرائي

من الأصول المنهجية الراسخة عند المفسرين أن **الأصل في القراءات الجمع لا الترجيح**، ما لم يوجد تعارض حقيقي يمنع ذلك. وقد صرّح ابن عطية بأن «الجمع بين معاني القراءات أولى من إلغاء بعضها، لأن الجميع وحي منزل» (ابن عطية، ٢٠٠٢، ج١، ص ٤١). ويُعدّ هذا الأصل حجر الأساس في التفسير بالقراءات؛ إذ يمنع اختزال المعنى القرآني في وجه واحد، ويُبقي النص مفتوحًا على دلالاته المقصودة. وقد طبق الرازي هذا المنهج في مواضع كثيرة، معتبرًا أن «تعدد القراءة دليل على سعة المعنى لا على اضطرابه» (الرازي، ٢٠٠٤، ج٢، ص ٨٨).

رابعًا: ضوابط توجيه المعنى في ضوء التنوّع القرائي

على الرغم من مشروعية الاتساع الدلالي الناتج عن التنوّع القرائي، فإن العلماء وضعوا ضوابط دقيقة لتوجيه المعنى، وقد شدد الشاطبي على هذا المعنى بقوله إن التنوّع في القرآن «مقصوده التوسعة لا التناقض، ومن جعله باب اضطراب فقد جهل مقاصد الشريعة» (الشاطبي، ٢٠٠٤، ج٣، ص ٣٠٥).

خامسًا: التنوّع القرائي ووحدة المعنى القرآني

يُفضي التأمل في التنوّع القرائي إلى نتيجة مركزية، وهي أن **وحدة المعنى القرآني لا تُنافي تعدد وجوهه**، بل تتحقق من خلاله. فالقراءات تعمل عمل العدسات المتعددة التي تكشف أبعادًا مختلفة للمعنى الواحد، دون أن تنفصم عرى النص أو تتشظى دلالته.

وقد عبّر السيوطي عن هذه الحقيقة بقوله: «القراءات بمنزلة الآيات المتعددة في المعنى الواحد، يزيد بعضها بعضًا بيانًا» (السيوطي، ٢٠٠٨، ج١، ص ٥١).

خلاصة المطلب

يتبين أن التنوّع القرائي يمثل ركيزة أساسية في توجيه المعنى التفسيري، إذ يفتح أفق الفهم، ويمنح النص القرآني مرونة دلالية منضبطة، تجمع بين الثبات والاتساع، وتؤكد أن التفسير بالقراءات منهج علمي أصيل، لا مجرد توظيف لغوي عارض.

المبحث الثاني: التطبيقات التفسيرية للتنوّع القرائي في فهم النص القرآني

المطلب الأول: مناهج المفسرين في التفسير بالقراءات

أولًا: منهج الطبري في توظيف القراءات

يُعدّ الإمام الطبري من أوائل من أسّسوا منهجًا واضحًا في التعامل التفسيري مع القراءات، إذ لم ينظر إليها بوصفها ظاهرة لغوية مجردة، بل عدّها **وجوهًا تفسيرية معتبرة**. ويقوم منهجه على عرض القراءات الثابتة، ثم بيان وجوهها اللغوية، مع السعي إلى **الجمع الدلالي** متى أمكن، دون إبطال أي قراءة متواترة.

ويصرّح الطبري في أكثر من موضع بأن اختلاف القراءات «اختلاف ألفاظ ومعانٍ، وكلها حق» (الطبري، ٢٠٠١، ج١، ص ٥١)، وهو ما جعله يعتمد القراءة أداة لفهم المعنى المقصود لا مجرد شاهد لغوي. وفي حال تعذّر الجمع، يلجأ إلى الترجيح وفق السياق أو الاستعمال العربي الغالب، دون إخراج القراءة الأخرى من دائرة القبول.

ثانيًا: منهج الزمخشري وأثر التوجيه اللغوي

يمثّل الزمخشري نموذجًا مغايرًا نسبيًا، إذ جعل **التحليل اللغوي والنحوي** أساس توجيه القراءات. فهو يربط بين اختلاف القراءة واختلاف وجه الإعراب أو الدلالة البلاغية، ويستثمر ذلك في تعميق الفهم البياني للنص.

وقد صرّح بأن اختلاف القراءات «يفتح في المعنى أبوابًا من البيان لا تُدرك بوجه واحد» (الزمخشري، ٢٠٠٩، ج١، ص ٥٨). ومع ذلك، فإن الزمخشري قد يُقدّم أحيانًا قراءة توافق مذهبه الاعتزالي، وهو ما نبه عليه عدد من العلماء، إلا أن منهجه في **التفسير اللغوي بالقراءات** ظلّ مؤثرًا في الدرس التفسيري.

ثالثًا: منهج ابن عطية والقرطبي في الجمع والترجيح

يمتاز ابن عطية بمنهج متوازن يجمع بين النقل والتحليل، حيث يقرر أصلًا مهمًا مفاده أن «القراءات إذا صحّت وجب حمل المعنى عليها جميعًا ما أمكن» (ابن عطية، ٢٠٠٢، ج١، ص ٤١). وهو بذلك يجعل القراءة عنصرًا توسيعيًا للمعنى، لا عامل ترجيح متعجّل.

أمـا القرطبـي، فقد وظّـف القراءات توظيفًـا فقهيًـا وتفسيريًا، مـع التـزام واضـح بضـوابط الأصول، حيث يذكر القراءات ثم يبيّن أثرها في المعنى، خصوصًا في آيات الأحكام، دون أن يجعل القراءة الشاذة أصلًا في الاستدلال (القرطبي، ٢٠٠٦، ج٢، ص ١٢).

رابعًا: منهج الرازي والبعد العقلي في التفسير بالقراءات

يتعامل الرازي مع القراءات بوصفها مدخلًا لتوسيع أفق التفكير في النص، إذ يربط بينها وبين الاحتمالات العقلية والدلالية. ويؤكد أن تعدد القراءة «دليل على أن المعنى أوسع من أن يُحصر في وجه واحد» (الرازي، ٢٠٠٤، ج٢، ص ٨٨).

ومع أن الرازي قد يُفرط أحيانًا في التحليل العقلي، إلا أن منهجه يكشف بوضوح عن **الطاقة الفلسفية والدلالية** التي يتيحها التنوع القرائي في التفسير.

المطلب الثاني: أثر التفسير بالقراءات في توسيع أفق فهم النص

أولًا: التفسير بالقراءات واتساع الدلالة العقدية

أسهم التنوّع القرائي في تعميق الفهم العقدي للآيات، من خلال جمع صفات الكمال الإلهي دون تعارض. ومن أبرز الأمثلة اختلاف القراءة في قوله تعالى:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، حيث قرر العلماء أن الجمع بين القراءتين يثبت كمال السلطان وكمال التصرّف معًا (الرازي، ٢٠٠٤، ج١، ص ١٤٥؛ ابن عاشور، ١٩٨٤، ج١، ص ١٦٨).

وهذا المثال يبيّن أن القراءة الواحدة قد تُظهر جانبًا عقديًا، بينما تُكمّله القراءة الأخرى، فيتحقق الاتساع العقدي دون تناقض.

ثانيًا: أثر القراءات في الآيات التشريعية

في آيات الأحكام، كان للقراءات دور مهم في بيان سعة التشريع ومرونته. فقد أشار الأصوليون إلى أن اختلاف القراءة قد يدل على تعدد مناط الحكم أو اختلاف جهة التكليف. ويقرر الشاطبي أن هذا التعدد «راجع إلى التوسعة على المكلفين لا إلى التضاد في الحكم» (الشاطبي، ٢٠٠٤، ج٣، ص ٣٠٦) ومع ذلك، شدد العلماء على أن القراءات لا تُنشئ حكمًا متناقضًا، بل تُبيّن وجوه التطبيق أو دائرة الحكم، وهو ما يظهر جليًا في توظيف القراءات داخل كتب التفسير الفقهي. ومن أوضح الأمثلة القرآنية التشريعية التي يتجلّى فيها أثر القراءات في بيان سعة الحكم دون تناقض، قوله تعالى في آية الوضوء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ القراءات الواردة: ﴿وأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب (قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي وغيرهم). ﴿وأَرْجُلِكُمْ﴾ بالجر (قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحمزة) , والأثر التشريعي:

قراءة النصب عُطفت فيها الأرجل على الأيدي، فدلّت على وجوب الغَسل، وهو مذهب جمهور الفقهاء, قراءة الجر عُطفت فيها الأرجل على الرؤوس، ففُهم منها المسح، إمّا:على ظاهره عند من قال بالمسح، أوعلى حالة مخصوصة كلبس الخفين، أو المسح الخفيف مع الغسل, وجه الدلالة الأصولية: هذا الاختلاف: لا يُنشئ حكمًا متضادًا، بل يدل على تعدد جهة التطبيق واتساع دائرة الحكم بحسب الحال ، وهو عين ما قرّره الشاطبي من أن اختلاف القراءات في آيات الأحكام «راجع إلى التوسعة على المكلفين لا إلى التضاد في الحكم». ولهذا اعتمد المفسرون الفقهيون .كالقرطبي، وابن العربي، وابن عاشور . على القراءات في بيان مرونة التشريع، وربط الحكم بالسياق والحال دون إخلال بأصل التكليف.

ثالثًا: التفسير بالقراءات والخطاب القصصي

يسهم التنوع القرائي في إثراء الخطاب القصصي القرآني، إذ يبرز تعدد زوايا السرد دون الإخلال بوحدة الحدث. وقد نبه ابن عاشور إلى أن اختلاف القراءة في القصص «يفتح أفق التصوير دون أن يغيّر من حقيقة الواقعة» (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج٣، ص ١٢),وجه الإثراء القصصي:

قراءة (فأزَلَّهُما) من الزلل: تُبرز البعد النفسي والأخلاقي، أي أن الشيطان أوقعهما في الخطأ والانحراف عن الأمر الإلهي.

قراءة (فأزالَهُما) من الإزالة: تُبرز البعد الحركي والحدثي، أي أن الشيطان كان سببًا في إخراجهما من حالة الاستقرار في الجنة , وهنا يتجلّى ما أشار إليه ابن عاشور بدقة؛ إذ إن اختلاف القراءة:

لا يغيّر حقيقة الواقعة القصصية (الوقوع في المخالفة والخروج من الجنة)،

لكنه يفتح زاويتين تصويريتين للسرد: زاوية داخلية تتصل بالزلل، وأخرى خارجية تتصل بالنتيجة الحركية , وهذا المثال يُعدّ شاهدًا تطبيقيًا قويًا على أن التفسير بالقراءات يسهم في تعميق الخطاب القصصي القرآني، ويمنحه ثراءً دلاليًا وسرديًا دون المساس بوحدة الحدث أو انسجام السياق.

وبذلك تتحقق وظيفة بلاغية وتربوية في آن واحد، تجعل القصة القرآنية قابلة للتلقي في سياقات نفسية وتربوية متعددة.

رابعًا: حدود الاتساع الدلالي وضوابطه

على الرغم من هذا الاتساع، فإن التفسير بالقراءات محكوم بضوابط صارمة، من أهمها:

١. الالتزام بالقراءات الثابتة.

٢. مراعاة السياق العام للنص.

٣. عدم تحميل القراءة معنىً خارج مقاصد الشريعة.

٤. التمييز بين الاتساع المشروع والتكلّف التفسيري.

وقد حذّر ابن تيمية من «اتخاذ اختلاف القراءات ذريعة لاضطراب المعنى» مؤكدًا أن الجميع حق «ولكن الحق لا يتناقض» (ابن تيمية، ١٩٩٧، ج١٣، ص ٣٨٩).

الخاتمة

بعد هذا العرض والتحليل، يمكن استخلاص جملة من النتائج العلمية، من أبرزها:

١. أن **التفسير بالقراءات منهج أصيل** في التراث التفسيري، وليس توظيفًا طارئًا أو اجتهادًا متأخرًا، بل هو متجذّر في ممارسة كبار المفسرين منذ الصدر الأول.

٢. أن **التنوّع القرائي اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد**، وأنه يسهم في توسيع الدلالة التفسيرية، مع بقاء وحدة النص القرآني والمقصد العام محفوظين.

٣. أن القراءات القرآنية تمثّل **نصًا مفسِّرًا داخل النص**، إذ تكشف وجوهًا متعددة للمعنى لا تستطيع قراءة واحدة الإحاطة بها منفردة.

٤. أن مناهج المفسرين في التفسير بالقراءات، على اختلاف مشاربهم، اشتركت في أصل جامع هو **تقديم الجمع الدلالي على الترجيح** ما أمكن، وعدم إلغاء أي قراءة ثابتة.

٥. أن الاتساع الدلالي الناتج عن التنوّع القرائي **اتساع منضبط**، تحكمه ضوابط السياق، ومقاصد الشريعة، وقواعد اللغة، مما يمنع تحوّله إلى تكلّف أو اضطراب في المعنى.

ويوصي البحث بضرورة إعادة إحياء منهج التفسير بالقراءات في الدراسات التفسيرية المعاصرة، وربطه بالدراسات الدلالية واللسانية الحديثة، لما في ذلك من إثراء للفهم القرآني، وتجاوز للنزعة الاختزالية التي تحصر المعنى في وجه واحد.

المصادر

١.أبو حيّان الأندلسي، محمد بن يوسف. (٢٠١٠). *البحر المحيط في التفسير* (ط. ١، مج ١–٣). بيروت: دار الفكر.
٢.ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب. (٢٠٠٢). *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز* (ط. ١، مج ١). بيروت: دار الكتب العلمية.
٣.ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤). *التحرير والتنوير* (ط. ١، مج ١، ٣). تونس: الدار التونسية للنشر.
٤.ابن الجزري، محمد بن محمد. (١٩٩٩). *النشر في القراءات العشر* (ط. ١، مج ١). بيروت: دار الكتب العلمية.
٥.ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٩٩٧). *مجموع الفتاوى* (ط. مجمع الملك فهد، مج ١٣). المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٦.الرازي، فخر الدين. (٢٠٠٤). *مفاتيح الغيب* (ط. ١، مج ١–٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٧.الزركشي، بدر الدين. (١٩٩٨). *البرهان في علوم القرآن* (ط. ١، مج ١). القاهرة: دار التراث.
٨.الزمخشري، محمود بن عمر. (٢٠٠٩). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل* (ط. ١، مج ١). بيروت: دار المعرفة.
٩.السيوطي، جلال الدين. (٢٠٠٨). *الإتقان في علوم القرآن* (ط. ١، مج ١). القاهرة: دار الفكر.
١٠.الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (٢٠٠٤). *الموافقات* (ط. ١، مج ٣). بيروت: دار المعرفة.
١١.الطبري، محمد بن جرير. (٢٠٠١). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن* (ط. ١، مج ١، ٥، ١٧). القاهرة: دار هجر.
١٢.القرطبي، محمد بن أحمد. (٢٠٠٦). *الجامع لأحكام القرآن* (ط. ١، مج ٢). القاهرة: دار الكتب المصرية.

References

١.Abu Ḥayyān al-Andalusī. (٢٠١٠). *Al-Baḥr al-Muḥīṭ fī al-Tafsīr* [The Comprehensive Ocean in Qur'anic Exegesis] (Vols. ١–٣). Beirut: Dār al-Fikr.
٢.Al-Qurṭubī, Muḥammad ibn Aḥmad. (٢٠٠٦). *Al-Jāmiʿ li-Aḥkām al-Qurʾān* [The Comprehensive Collection of Qur'anic Rulings] (Vol. ٢). Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣriyyah.
٣.Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn. (٢٠٠٤). *Mafātīḥ al-Ghayb* [Keys to the Unseen] (Vols. ١–٢). Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.
٤.Al-Shāṭibī, Ibrāhīm ibn Mūsā. (٢٠٠٤). *Al-Muwāfaqāt* [The Reconciliations] (Vol. ٣). Beirut: Dār al-Maʿrifah.
٥.Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn. (٢٠٠٨). *Al-Itqān fī ʿUlūm al-Qurʾān* [Mastery in the Sciences of the Qur'an] (Vol. ١). Cairo: Dār al-Fikr.
٦.Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. (٢٠٠١). *Jāmiʿ al-Bayān ʿan Taʾwīl Āy al-Qurʾān* [The Comprehensive Explanation of Qur'anic Interpretation] (Vols. ١, ٥,

.١٧). Cairo: Dār Hajar

٧.Al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ʿUmar. (٢٠٠٩). *Al-Kashshāf ʿan Ḥaqāʾiq Ghawāmiḍ al-Tanzīl* [The Revealer of the Realities of Revelation] (Vol. ١). .Beirut: Dār al-Maʿrifah

٨.Al-Zarkashī, Badr al-Dīn. (١٩٩٨). *Al-Burhān fī ʿUlūm al-Qurʾān* [The Proof in .the Sciences of the Qur'an] (Vol. ١). Cairo: Dār al-Turāth

٩.Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. (١٩٨٤). *Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr* [Liberation .and Enlightenment] (Vols. ١, ٣). Tunis: Al-Dār al-Tūnisiyyah lil-Nashr

١٠.Ibn al-Jazarī, Muḥammad ibn Muḥammad. (١٩٩٩). *Al-Nashr fī al-Qirāʾāt al-ʿAshr* [Publication on the Ten Qur'anic Readings] (Vol. ١). Beirut: Dār al-Kutub .al-ʿIlmiyyah

١١.Ibn Taymiyyah, Aḥmad ibn ʿAbd al-Ḥalīm. (١٩٩٧). *Majmūʿ al-Fatāwā* [Collected Legal Opinions] (Vol. ١٣). Madinah: King Fahd Complex for the .Printing of the Holy Qur'an

١٢.Ibn ʿAṭiyyah al-Andalusī. (٢٠٠٢). *Al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-ʿAzīz* [The Concise Commentary on the Noble Book] (Vol. ١). Beirut: Dār al-.Kutub al-ʿIlmiyyah